أثر التركيب في قراءة المعنى الضمني من الخطاب القرآني الإقناعي

أ.م.د. محمد ياسين الشكري

الباحثة حوراء كريم سلمان

المقدمة:

تهدفُ الدراسة إلى تلمس الدلالة في التركيب، ومعرفة ما تتركه التراكيب من أثرٍ في المعنى، وتوضيحُ ما تخفيه التراكيب من مكنونات داخل الخطاب القرآني الإقناعي، راصدة الجوانب الدلالية والمعاني الضمنية، ومن هنا تنبعُ أهمية الدراسة؛ لأنَّ أكثرَ الدراسات قائمة على دراسة التركيب من دون الاعتداد بالامتدادات والتفرعات الناشئة عن التركيب الأساسي أو البؤرة، والتقيدُ فقط بتحديد أنماط التراكيب وبيان الوظائف النحوية من دون البحثِ عن الدلالاتِ الضمنية التي تتمخضُ عن هذه التراكيب.

وتُعدُّ الآليات التركيبية في كلِّ خطاب، والخطاب القرآني خاصة، من الوسائل المهمة في تحليل الخطاب ومعرفة الأسرار والدقائق التي يخفيها النّص، فهي تُعدُّ المعين لفهم النّص ومعرفة الدلالات الخفية التي تكمن وراء الأسلوب القرآني الّذي فاق قدرة البشر من حيث دقته وعمقه وجماله، فعن طريق التركيب يمكن الغوص في أغواره، محاولة لكشف مراميه، للوصول إلى معانيهِ الضمنية الكامنة في الخطاب.

ويمكننا أنْ نميز بين عدد من الآليات التركيبية التي يمكن أنْ تسهم بشكل فعال في عملية الإقناع وتكشف لنا ما هو دقيق وضمني؛ لفهم الخطاب وتحليله. لعل من أهمها:

١-الإحالة:

تُعدُّ الإحالة من أهم وسائل تحليل النّص وفهمه، ومعرفة ما يضمره من معانٍ ضمنية؛ حيث إنَّها تُشير إلى العلاقات المعنوية القائمة داخل النّص، فيمكن عن طريق المكونات الإحالية أنْ تتكون شبكة من العلاقات بين المكونات المتباعدة في فضاء النّص، لذلك نجد اهتمام علم اللغة النصيّ تمحيصاً وتفصيلاً

وتأملاً، ونسعى في دراستِنا هذه لتبيين دور الإحالة في استيعاب ومعرفة ما يضمره الخطاب القرآني انطلاقاً من جملة من الشواهد المنتقاة من آي الذكر الحكيم.

ومن الشواهد التطبيقية في الخطاب القرآني الإقناعي قوله عز وجل :"ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ"[١]. إنَّ الإحالة باسم الإشارة (ذَلِكَ) يُشير إلى معانٍ دقيقة قصدها القران الكريم، وقد ذكر الفخر الرازي وجوه لها، هي : [٢]

١-الله سبحانه وتعالى أَنزلَ القرآن الكريم بعضه بَعْدَ بعض ، فنَزَّل قبل سورة البقرة سور عدة، والإحالة بـ(ذلك) إشارة إلى تلكَ السور التي نزلت قبل هذه السورة المباركة.

٢-وعدَ الله -عز وجل- النبي محمد(صلّى) في أول البعثة بأن ينزل عليه كتابا لا يمحوه الماحي والإحالة بـ(ذَلِكَ) هنا إشارة إلى ذلك الكتاب الموعود به.

٣-الإحالة بـ(ذَلِكَ) إشارة إلى الكتاب(القرآن) الذي أخبر به موسى وعيسى (عليهما السلام) بني إسرائيل، أنّه ينزل على نبي من ولد إسماعيل، المراد به النبي محمد (صلّى).

٤-يشير (ذَلِكَ) عن طريق الإحالة إلى الكتاب المثبت في اللوح المحفوظ.

٥-الإحالة بـ(ذَلِكَ) تعود على (الم) بعد ما سبق التكلم به وانقضى في بداية السورة، والمنقضي في حكم المتباعد.

٦-إنَّ الإحالة بـ(ذَلِكَ) يومئ إلى أنَّه لَمّا بلغ من المرسل إلى المرسل إليه أصبح في حد البعد.

٧-إنَّ القرآن الكريم لما تضمن على حكم عظيمة هائلة وعلوم متعددة يصعب اطلاع القوة البشرية عليه بأسرها ، والقرآن الكريم وإنْ كان حاضراً مشاهداً نظراً إلى صورته لكنه غائب خفي نظراً إلى أسراره وحقائقه، فجاز أنْ يحيل إليه كما يحيل إلى البعيد الغائب.

وهناك معنى آخر يظهر عِبر الإحالة في (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ)، إذ فيه إشارة إلى أنّه: "كتاب علي لا

ريب فيه {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}، قال: المتقون شيعتنا"[٣]. وإنّ: "إضافة الكتاب إلى علي بيانيّة يعني أن ذلِكَ إشارة إلى علي والْكِتابُ عبارة عنه، والمعنى أن ذلِكَ الْكِتابُ الذي هو علي لا مرية فيه وذلك لأن كمالاته مشاهدة من سيرته وفضائله منصوص عليها من الله ورسوله واطلاق الكتاب على الإنسان الكامل شائع في عرف اهل الله وخواص أوليائه"[٤] . قال أمير المؤمنين عليه السلام:[٥]

دواؤكَ فيك وما تَشعـــُـرُ   وداؤك منك وما تُبصـــرُ

أتَزعم أنّكَ جرْمٌ صغيـــرٌ   وفيكَ انطَوَى العالَمُ الأكبرُ

وانت الكتاب المبين الذي   بأحرفه يظهر المُضمَـــرُ

وعن طريق عنصر إحالي آخر يظهر لنا معنى دقيق قصده وتضمنه الخطاب، فهذه العناصر الإحالية تحمل معانٍ متضمنة تكشف عن طريق إنعام النظر فيها، ففي قوله: (لَا رَيْبَ فِيهِ) يعود الضمير إلى الحكم أو إلى الكتاب، فعند إرجاع الضمير إلى الحكم يكون بمعنى يقيناً وبلا شك ، وبالتالي يكون جهة وتحقيقاً لأثبات كماله[٦]. أمّا عند عودة الضمير إلى الكتاب فيكون في ذلك إحالة لقصد الكمال، فتضمن تقريراً لجهة التحدي، وشدّاً من أعضاده، وكلّ ذلك شهادة واعترافاً بكماله؛ وذلك لأنَّه لا يوجد أكمل مما كان للحق واليقين، ولا يوجد أنقص مما كان للباطل والشبهة[٧]. فإنَّ قوله:(لَا رَيْبَ فِيهِ) وإنْ أفصح عن أنَّه ليس محلا للشك يعلن بالإضافة إلى ذلكَ بأنَّه منور بنور اليقين[٨].

أمّا قولهُ تعالى :(هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)، فإنَّ كان ظاهره الإخبار إلاّ أنّه تضمن معنى الإرشاد، ففيه:"إِشَارَةٍ إِلَى بُلُوغِهِ الْغَايَةَ فِي إِرْشَادِ النَّاسِ حَتَّى كَانَ هُوَ عَيْنُ الْهُدَى تَنْبِيهًا عَلَى رُجْحَانِ هُدَاهُ عَلَى هُدًى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ"[٩]. وتضمن أيضاً:"ثَنَاءٌ عَلَى الْقُرْآنِ وَتَنْوِيهٌ بِهِ وَتَخَلُّصٌ لِلثَّنَاءِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ انْتَفَعُوا بِهَدْيِهِ"[١٠].

وفي ضوء ما تقدم يظهر أنَّ التركيب هنا يحمل دلالات خفية ومعاني ضمنية تكمن وراء هذا الخطاب القرآني الإقناعي المميز ، فقد دلّ على التعظيم والأهمية والتنبيه على عظمة الكتاب الكريم، فذكرت الآية لمدح القرآن الكريم وأثبات الكمال له، زيادة على تضمنه الإرشاد للناس والثناء على المؤمنين.

وقد وقف العلماء عند هذه المعاني الضمنية ، حيث قيل: "كيف يقول المتكلم شيئاً ويعني شيئاً آخر؟ ثمَّ كيف يكون ممكناً أن يسمع المخاطب شيئاً له معنى ويفهم منه معنى آخر؟"(١١). ومن الّذين حاولوا إيجاد تفسير لذلك سيرل فهو من القائلين بـ: "فرضية المغزى الحرفي؛ لأنّه يفترض أنّ كل جملة في اللغة لها مغزى كلامي يتولد من صيغتها الشكلية أو النحوية"(١٢). حيث إنَّ السياق يمنحنا معانٍ إضافية(ضمنية)، فمن الممكن أنْ: "تنجز فعلين اثنين: فعلاً لغويّا مباشراً، وفعلاً لغوياً غير مباشر*، ينتقل من أولهما إلى ثانيهما عبر سلسلة من الاستدلالات"(١٣). وفي ضوء ما تقدم نستنتج أَنَّ للخطاب معانٍ مباشرة(صريحة) وأخرى غير مباشرة (ضمنية).

وتتراءى الإحالة أيضاً في قولِهِ تَعَالَى:"وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ"(١٤). بَعْدَ أنْ أمر الله سبحانه وتعالى بالعبادات في الآية التي سبقت هذه الآية، اعقبها بذكر ما يَدلُّ على وجوده واتصافه بصفات العظمة والوحدانية وأنّه الإله الخالق الّذي خلق الإنسان في مراحل متعددة ليصبح على هذه الهيأة، وفي قولِهِ :(جَعَلْنَاهُ) إحالة عن طريق الضمير(الهاء) ،أي: "جعلنا نسله فحذف المضاف. نُطْفَةً بأن خلقناه منها أو ثم جعلنا السلالة نطفة، وتذكير الضمير على تأويل الجوهر أو المسلول أو الماء. فِي قَرارٍ مَكِينٍ مستقر حصين يعني الرحم، وهو في الأصل صفة للمستقر وصف به المحل للمبالغة كما عبر عنه بالقرار"(١٥). وهذا الخطاب يحمل معنى ضمني فقد: "تَضمَّن ذَلِكَ امْتِنانا علَى النَّاسِ بأَنَّهُ أَخْرجهُمْ مِنْ مهانَةِ الْعدمِ إِلَى شرفِ الْوجودِ وَذَلِكَ كلُّهُ لِيَظْهرَ الفَرْقُ بَيْنَ فَرِيقِ المُؤْمنينَ

الَّذِينَ جرَوْا فِي إيمانِهِمْ علَى مَا يَليقُ بالاعترافِ بِذَلِكَ وَبَيْنَ فريقِ المُشْركِينَ الَّذِينَ سَلَكُوا طَرِيقًا غَيْرَ بَيِّنَةٍ فحادُوا عَنْ مُقْتَضَى الشُّكرِ بالشِّرْكِ"[١٦].

وإنَّ الخطاب القرآني الإقناعي هنا وأنْ كان ظاهره التشريف والتكريم، إلاّ أنَّه يحمل معنى التحذير إلى بني آدم، بمعنى أيّها الإنسان انتبه فقد خلقناك من العدم بل من مهانة العدم ، فليس صعباً جعلك إلى ما هو أقسى من ذلك ، واعلم أنَّ هذا مرتبط بما ستقدمه، فالتزم الحدود التي رسمناها لك، والّذي أكد هذا المعنى قوله تعالى: "ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ"[١٧]، حيث جاء مباشرة بَعْدَ آيات مراحل خلق الإنسان ؛ ليكون تذكير وتنبيه على مدى قصر الحياة الدنيوية وفناؤها. _والله أعلم_ .

ومن أمثلة ذلك قولهُ عز وجل :"وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً وَلَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيها خالِدُونَ"[١٨]. عملت العناصر الإحالية في هذا الخطاب على إضفاء معنى خفي نلتمسه عن طريق التدقيق والتأمل في هذا النّص المبارك، ففي قولهِ تعالى:(الَّذِينَ آمَنُوا) إحالة بالاسم الموصول إلى الّذي مر ذكره في بداية السورة ليكون تفصيله هناك مبينا لما أجمل هنا، فقال:(الَّذِينَ آمَنُوا) بدل المؤمنين للإشارة إلى معنى تضمنته الآية فقد اشار إلى الَّذِينَ آمنُوا بالغيب واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقهم الله وآمنُوا بالبعث وبما أنزل عليهم[١٩]. والمعنى الضمني الّذي نلتمسه يتمثل بالترغيب لهؤلاء المؤمنين بأنَّ عملهم الصالح وإيمانهم بالله تعالى هو السبيل لوصولهم إلى ما يتمنون(الجنة).

وهناك معنى آخر عِبر الإحالة في قوله تعالى:" وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا"، حيث قيل الذين آمنوا :"بالله وصدقوك في نبوتك، فاتخذوك إماماً وصدقوك في أقوالك وصوّبوك في أفعالك واتخذوا أخاك علياً بعدك إماماً ولك وصيّاً مرضياً وانقادوا لما يأمرهم به وصاروا إلى ما أصارهم إليه، ورأوا له ما يرون لك إلا النبوة التي أُفردت بها، وأن الجنان لا تصير لهم إلا بموالاته وبموالاة من ينصّ لهم عليه من ذريته وبموالاة سائر

أهل ولايته ومعاداة أهل مخالفته وعداوته، وأن النيران لا تهدأ عنهم ولا تعدل بهم عن عذابها إلا بتنكّبهم عن موالاة مخالفيهم ومؤازرة شانئيهم"[٢٠] .

وأمّا قوله تعالى: "هذا الذي رزقنا من قبل"، مراد به هذا الّذي رزقناه من قبل وشبهه بدليل قوله تعالى: "وأتوا به متشابها"، فضمير الهاء في (به) يعود على المرزوق في الدنيا والاخرة جميعا؛ وذلك لأنَّ قوله تعالى: "هذا الذي رزقنا من قبل"، انطوى وراءه ذكر ما رزقوه في الدارين[٢١].

وفي نهاية الآية قال تعالى: "وَلَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيها خالِدُونَ"، حيث إنَّ (لهم) دَلَّت على الاختصاص والتملك، وأيضاً تضمنت رمز إلى التخصيص والحصر، و(فيها) تضمنت إيماء خفي إلى أنَّ الجنة تزينت وتبرجت بهن ، و(فيها) تضمنت أيضاً إيماء إلى أنَّ تلكَ الأزواج لائق بتلك الجنة، وبذلك يكون نسبة علو درجاتها يفوق حسنهن، وقولهُ تعالى: " وَهُمْ فِيها خالِدُونَ"، أشار إلى أنَّهم ، وكذلك أزواجهم والجنة نفسها كافة أبدية[٢٢].

إنَّ هذا الخطاب الإقناعي يزف البشرى للمؤمنين الصادقين، ويتضمن ترغيباً حيث وعد الله عباده المؤمنين بالجنات وما فيها من النعم المستدامة، فالمعنى الضمني يحمل ترغيباً للذين آمنوا وليس (المؤمنون) ؛ وذلك كون المؤمنين هم من ترسخ فيهم الإيمان ولا يمكن الرجوع عنه ، أمّا الذين آمنوا فهم في طليعة الإيمان؛ لذلك ترغيبهم قد يكون دافعاً وحافزاً لهم ليكونوا مؤمنين، وتسلية لهم عما يجدونه من مشقات في سبيل الوصول إلى هذا النعيم، وتضمن هذا الخطاب حث ودعوة إلى الإيمان والعمل الصالح اللذين ينال بهما المؤمن هذه اللذائذ الحسية.

٢-الحذف:

تزخر ظاهرة الحذف بشحناتٍ دلالية هائلة، فالحذف كغيره من الظواهر حلية أسلوبية، تدخل القارئ عالم النّص، وتعمل على إثارتهِ ودعوتهِ إلى المشاركة في تشكيل رؤية النّص، فيُعدُّ الحذف بمثابة شحن للنّص

بالتغيرات التي يحدثها مما يفرض على القارئ البحث عن ملأ هذه الفراغات والفجوات للوصول إلى المعاني الدقيقة الضمنية .

من الشواهد التطبيقية على هذه الظاهرة قوله تعالى :"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا"(٢٣). فإنّ ظاهر الخطاب أنّ المقصود بالنفس الواحدة آدم(عليه السلام)، ومن زوجها زوجته، وهما أبوا هذا النسل الموجود الّذي نحن منه وإليهما ننتهي جميعاً، على ما هو ظاهر القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: "خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا"(٢٤)، وقوله تعالى:" يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ"(٢٥). وأمّا ما احتمله بعض المفسرين أنّ المقصود بالنفس الواحدة وزوجها في الآية المباركة مطلق الذكور والإناث من الإنسان الزوجين اللذين عليهما مدار النسل، فيؤول المعنى إلى نحو قولنا: خلق كل منكم أب وأم بشرين من غير فرق في ذلك بينكم فيناظر قوله عزَّ وجلّ:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ "(٢٦)، حيث إنَّ ظاهره نفي الفرق بين الأفراد من جهة تولد كل واحد منهم من زوجين من نوعه: ذكر وأنثى(٢٧).

ففي قوله: (وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) حذف يكمن وراءه معنى دقيق، فـ :"كأنه قيل من نفس واحدة أنشأها وخلق منها زوجها والمعنى شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها وهى أنه صفتها وهي أنه أنشأها من تراب وخلق منها زوجها حواء من ضلع من أضلاعه {وَبَثَّ مِنْهُمَا} ونشر من آدم وحواء {رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء} كثيرة أي وبث منهما نوعي جنس الإنس وهما الذكور والإناث فوصفها بصفة هي بيان وتفصيل لكيفية خلقهم منها أو على خلقكم"(٢٨).

وعِبر الإحالة بـ(منهما) في قوله تعالى:" وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً"، يظهر معنى عميق، فإنَّ ظاهر الآية أنَّ النسل الموجود من الإنسان ينتهي إلى آدم وزوجته من غير أنْ يشاركهما فيه غيرهما، فإنّه لَمْ يقل منهما ومن غيرهما، وبذلك يتفرع عليه أمران:

أحدهما: إنَّ المقصود بقولِهِ تعالى:" رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً"، أفراد البشر من ذريتهما بلا واسطة أو مع واسطة فكأنه قيل: وبثكم منهما أيها الناس.

والآخر: إنَّ الازدواج في الطبقة الأولى بعد آدم وزوجته أعني في أولادهما بلا واسطة أو مع واسطة إنّما حدث بين الإخوة والأخوات (ازدواج البنين بالبنات) إذ الذكور والإناث كانا منحصرين فيهم يومئذ، ولا ضير فيه، فإنّه حكم تشريعي راجع إلى الله سبحانه وتعالى فله أنْ يبيحه يوماً ويحرمه آخر، قال عزَّ وجلّ: "وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ"[٢٩]، وبالنهاية فإنَّ حكمه تعالى يصب في منفعة خلقه[٣٠]. علماً أنَّ الإحالة من الوسائل التي يتوصل عن طريقها إلى المعنى الضمني.

ويكمن وراء قوله تعالى:" وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ"، غرض دقيق وسر عميق، حيث إنَّ قوله والأرحام :"إن جعل صلة مستقلة للذي، وكان تقدير الكلام: واتقوا الله الذين تسألون بالأرحام كان خالياً من الضمير وهو غير جائز، وإن كان المجموع منه ومما قبله صلة واحدة "للذي" كان فيه تسوية بين الله عز اسمه وبين "الأرحام" في أمر العظمة والعزة وهي تنافي أدب القرآن"[٣١]. وإنّ المراد واتقوا الأرحام.

وقد تضمن هذا الخطاب معانٍ دقيقة ضمنية نكتشفها عن طريق التدقيق وإنعام النظر، هي:[٣٢]

١–في هذا الخطاب تلويح للمشركين بضرورة السير على ما جاء به الإسلام؛ وذلك كون الناس أبناء أبٍ واحد، لذا نجد أنَّ هذا الدين يدعو الناس كافة إلى السير على منهاجهِ، فهو جدير بأنْ يكون دين البشر جميعها، على عكس بقية الشرائع فهي مقتصرة باختصاصها بأمم معينة.

٢-تضمن هذا الخطاب تعريض وكما هو واضح أنَّه تَعْرِيضٌ لِلْمُشْرِكِينَ، يخبر بِأَنَّ أحق النَّاسِ وأولاهم بِأَنْ يَتَّبِعُوهُ ويسيروا على خطاه هُوَ النبي مُحَمَّدٌ؛ وذلك كونه مِنْ ذَوِي رَحِمِهِمْ.

٣-في هذا الخطاب القرآني معنى ضمني متمثل في تنبيه الناس على عجيب هذا الخلق، والجدير بهم أنْ يتعظوا ويأخذوا العبرة من ذلك.

٤-عند التأمل في الآية الكريمة واقفين عنْدَ جزيئاتِها الدقيقة يظهر دلالتها على التوحيد والألوهية، وهذا ما أوحى به هذا الخطاب لما أقرّه من صفات الكمال التي تستوجب تنزيهه عن الشركاء.

وهذا الخطاب القرآني الإقناعي يحمل معانٍ ضمنية متمثلة بالحث على الأنصاف والمساواة، فقولهُ عز وجل:(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)، نستنطق منه معنى المساواة بين الخلق، فالقرآن الكريم أكّدَ على مبدأ المساواة في القيمة الإنسانية، فهذا الخطاب الذي يتضمن بين طياته معنى العدالة يؤكد على أنهم في درجة واحدة من المساواة، أي إنّ الذي خلقهم واحد.

ومن ذلك قولهُ عزَّ وجلّ: "وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُوها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ"(٣٣). ففي هذا الخطاب القرآني حذفٌ، وعن طريق الحذف نكتشف معانٍ ضمنية قصدها الخطاب، فَلَمْ تَكُنْ الغاية الاختصار والإيجاز فحسب، وإنّما ليعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، وحذف جواب الشرط في هذه الآية ليدلّ على معنى أوسع أشار إليه عز وجل، فـ"كأنه قيل: حصلوا على النعيم المقيم الذي لا يشوبه التنغيص والتكدير، وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان"(٣٤) . وبذلك قدم لنا معنى دقيق عِبر هذا التركيب.

إنَّ هذا الخطاب القرآني الإقناعي يكمن وراء أسلوبه المعجز معانٍ ضمنية نصل لها عن طريق التأمل في هذا الأسلوب البديع لعلنا نقف على بعض مرامي الخطاب القرآني التي يمكن استنتاجها من السياق، وهي:

١- البشارة ، فهذا التركيب يتضمن دلالات خفية توحي بالبشارة للذين يتقون الله .

٢- تضمن هذا الخطاب الإقناعي الوعد والوعيد بالجنة للذين آمنوا واتقوا الله .

٣- التحريض والترغيب للناس كافة على عمل الخير واتقاء الله _عز وجل_.

٣-الوصل والفصل:

يُعدُّ الفصل والوصل بين المفردات أو بين الجمل بابٌ دقيق المجرى، لطيف المغزى، جليل المقدار، كثير الفوائد، غزير الأسرار، فهو من الفنون البعيدة المنال التي تطول على من رامها، ويمكن عن طريق هذا الأسلوب البديع أنْ نلتمس دقائق المعاني والإحاطة بما هو ضمني خلف سطورها.

ومن أمثلة ذلك في الخطاب القرآني الإقناعي قوله عز وجل: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ"(٣٥). في الآية الكريمة يلحظ أنَّ أسلوب الوصل كان له الأثر في إكساب الخطاب دلالات خفية ومعانٍ ضمنية يتوصل لها القارئ عن طريق التأمل في النّص: "فإنه لا يخفى مجيء الواو في هذه الآيات بين جملٍ بينها قوة ترابط وشدة تلاحم وكمال اتصال، وأن هذا المجيء يُنبئ بمعانٍ دقيقة وأسرار لطيفة، فتكرار الأمر بالتقوى وعطف أحدهما على الآخر، يؤذن بأن الأمر الثاني غير الأول، ووراء ذلك إعلاء بشأن التقوى وحث عليها"(٣٦). وقد فسر التقوى الْأُولَى التوْبة فِيما مضى وحصل مِنَ الذّنوبِ، وأريد من الثَّانِيةُ ترك المعاصي واتقاؤها في المستقيل، والذي يؤذن بذلك الوعيد في قولِهِ تَعَالَى:(إن الله خبير بما تعملون)(٣٧).

عند التأمل في هذا الخطاب القرآني الإقناعي نتوصل إلى معانٍ ضمنية، هي:

١-فضلاً عن المعنى الظاهر الّذي يوجب التقوى، فإنَّنا نجد أنَّ في هذه الآية حث على التنافس والتسابق في إداء عمل الخير، من أجل أنْ تسعى كلّ نفسٍ على الاجتهاد في تقديم العمل الصالح لتكون الأفضل،

فإنَّ ارتقاء الإنسان عند ربه لا يكون إلا بأعماله الصالحة، وأيضاً فيها حث على الإسراع في العمل وعدم التأخير، وفي هذا وضع معايير لبناء الشخصية الناجحة .

٢-في الآية تذكير وتنبيه وإيقاظ من الغفلة، زيادة على ذلك يكمن وراء سطوره تحذير من النسيان والترك، فالله _عزَّ وجلّ_ في هذه الآية يلفت نظرنا لتوجيه سؤال إلى أنفسنا فحواه أيّها العبد المؤمن هل أعددت العدة لساعة الموت؟.

ونحو ذلك قوله عز وجل: "الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَقِنا عَذابَ النَّارِ *الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ"[٣٨]. إنّ الوصل بحرف العطف (الواو) وتوسطه بينهما يُنبئ بمعانٍ دقيقة، تدلُّ على استقلال كل واحد منها وكمالهم فيها أو لتغاير واختلاف الموصوفين بها، فنلحظ أنَّ الواو دلّت على كمالهم في كل واحدة منها[٣٩]. وذكر هذه الأوصاف ترغيباً في التحلي بها، والمحافظة على مضامينها، فهي رسالة إلى الإنسانية جمعاء، لما فيها من شروط المؤمنين بالله، التي تدلُّ على قوة إيمانهم، وإذعانهم للحق حق الإذعان، ويصبرون في البأساء والضراء وحين البأس، إذ إنَّ الصبر في البأساء والضراء وحين البأس من أكبر البراهين على سلامة اليقين، زيادة على أنَّ الصدق من أكمل الصفات الإنسانية وأشرفها، والقانت كما هو معروف هو المستمر على طاعة الله _سبحانه وتعالى_ من دون ملل ولا كلل، فالقنوت تصوير الإذعان المطلق لربِّ العالمين، ومنفقون أموالهم بالطريقة التي شرعها الله وأمر بها، ويسألون الله _تعالى_ أنْ يغفر لهم خطاياهم، ولاسّيما استغفارهم في الأسحار.

وقوله عزَّ وجلَّ: "مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"[٤٠]. سر بلاغة الوصل في هذا الموطن أنَّ الآية الكريمة تصوّر عظمة الله _سبحانه وتعالى_ وقدرته، وبيده الأمر، ولا يتحقق ذلك إلاّ بالجمع بين القبض والبسط، والذي أظهرته الآية الكريمة بوضوح، ولو ترك العاطف كان قولهُ تعالى :(يبسط) رجوعاً عن قولهِ تعالى: (يقبض) وإبطالاً[٤١]. وقوله تعالى:"

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ..."، فيها دلالة على أنَّ الله تعالى لا يستقرض من عوز، لكنه تلطفٌ في الاستدعاء، وحثٌ على الإحسان، كأنه قال: من ذا الذي يعمل كالذي يقرض؟ ويأخذ ما أقرضه أو أضعافه في وقت حاجته له. وكأنه قال: من تطوع خيراً فإنَّ الله يحسن مجازاته ويوجب مكافأته. على أنَّ هناك فرقاً بين التطوع والقرض، فالقرض تاركه يستحق الذم والعقاب، أمّا التطوع فتاركه لا يستحق الذم والعقاب .

وفي قوله تعالى:" مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا"، معنى عميق ودلالة خفية، حيث قيل المراد به صِلة الإمام(٤٢). _والله اعلم_.

إنَّ هذا الخطاب القرآني الإقناعي يتضمن معانٍ دقيقة ضمنية، هي:(٤٣)

١-الآية الكريمة اعتراض بين قوله تعالى: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ" إلى آخر الآية وقوله تعالى: "ألم تر إلى الملأ..."، الغرض منه الاستطراد من أجل الحث على الأنفاق لوجه الله في طرق البر، وذلك لمناسبة الحث على القتال، فإنَّ ذلك كون القتال يستدعي الإنفاق وبذل المال والأنفس.

٢- إنَّ الاستفهام في قوله تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ)، جاءَ من أجل التحضيض والتهييج على الاتصاف بالخير، إذ كأن المستفهم لا يعلم من هو أهل هذا الخير والجدير به، فمقصود المتكلم استثارة همم المخاطبين للامتثال لهذا الطلب فيقبل على الإنفاق وعلى بذل المال والأنفس، فقد تضمن الخطاب ألطف أنواع الاستفهام، وهو المتمثل بالاستفهام المتضمن معنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر.

٣-في الخطاب وعد من الله تعالى إذ إنَّه يحتمل أنَّ المقصود به يقبض نفوسا عن الخير، ويبسط نفوسا للخير، فتضمن تعريض بالوعد بالتوسعة على المنفق في سبيل الله، والتضييق على البخيل، والتعريض بالوعد المتضمن في الخطاب غرضه حث المخاطبين على الامتثال للإنفاق.

٤-هناك معنى ضمني دلّت عليه الصيغة الخبرية (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، إذ إنّه خبر مستعمل من أجل التنبيه والتذكير؛ وذلك بأنَّ ما أعد لهم يوم القيامة من الجزاء على الإنفاق في سبيل الله أعظم مما وعدوا به من الخير في الدنيا الفانية، وتضمن تعريض بأنَّ الممسك البخيل المعرض عن الإنفاق في سبيل الله، لا يناله نصيب في ذلك بل يحرم من خير كثير.

٥-تضمن هذا الخطاب تقرير وتأكيد وتسلية للمؤمنين في قولهِ تعالى: " وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ"، فـ: "الكلام كالتأكيد والتقرير لما قبله ووجه تأخير البسط عليه ظاهر، ووجه تأخيره على الأوّل الإيماء إلى أنه يعقب القبض في الوجود تسلية للفقراء"(٤٤). فجاء هذا المعنى عِبر أسلوب التقديم والتأخير في التركيب.

٤- التقديم والتأخير:

إنَّ التقديم والتأخير في الكلام لا يرد عبثاً في النظم والتأليف، فالمتكلم إنّما يقدم ويؤخر ليظهر معنى في نفسه لا يمكن أنْ يظهر إذا أتى بالكلام على أصلهِ دون تقديم أو تأخير، وبهذا يكون للتقديم والتأخير أثراً في معرفة المعنى الضمني في الخطاب القرآني.

ومن الشواهد التطبيقية على ذلك في الخطاب القرآني الإقناعي قوله تعالى: "يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ"(٤٥). رتب نظم الآية الكريمة على التقديم والتأخير وكان وراء ذلك معنى دقيق، فإنَّ الأصل (نعيد الخلق كما بدأنا أول خلق يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب وعداً علينا)، فحول النظم فقدم الظرف بادئ ذي بدء؛ ليحمل معنى التشويق إلى متعلقه، ولما في الجملة التي أضيف إليها الظرف من الغرابة والطباق، إذ جعل ابتداء خلق جديد والمتمثل بالبعث مؤقتا بوقت نقض خلق قديم وهو طي السماء، وقد قدم (كما بدأنا)؛ ليحمل معنى التعجيل بإيراد الدليل قبل الدعوى لتتمكن في النفس أفضل تمكن، وليعطِ معنى خفياً يتمثل بالاهتمام بتحقيق وقوع البعث، فليس قوله تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ) متعلقا بما قبله من قوله عز وجل: "وَتَتَلَقَّاهُمُ

الْمَلائِكَةُ"[٤٦]. ومن ثَّم عقب ذلك بما يفيد تيقن حصول البعث من كونه وعداً على الله بتضمين الوعد معنى الإيجاب، فعدي بحرف (على) في قوله تعالى:(وعْداً عَلَيْنَا)، أي حقا واجباً[٤٧].

على أنَّ هذا الخطاب الإقناعي يحمل بين طياته معانٍ ضمنية تتمثل بمعنى: التذكير والتهديد والتحذير (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب)، ويحمل بيان القدرة المطلقة لله تعالى، تجسدت بقوله: "كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا"، ويحمل معنى التأكيد بقوله تعالى: "إنا كنا فاعلين".

ومما ورد في ذلك قوله عز وجل: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ"[٤٨]. يناقش بعض المفسرين قضية التقديم والتأخير في هذه الآية، موضحين المعنى المراد الذي يكمن وراء ذلك، فقد قدم عدوي اولاً، وعطف عدوكم عليه ، فذهب الفخر الرازي مفسراً ذلك :"الْعَدَاوَةُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ بِسَبَبِ مَحَبَّةِ اللَّه تَعَالَى وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ، فَتَكُونُ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ لِحَضْرَةِ اللَّه تَعَالَى لِعِلَّةٍ، وَمَحَبَّةُ حَضْرَةِ اللَّه تَعَالَى لِلْعَبْدِ لَا لِعِلَّةٍ، لِمَا أَنَّهُ غَنِيٌّ عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَلَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى غَيْرِهِ* أَصْلًا، وَالَّذِي لَا لِعِلَّةٍ مُقَدَّمٌ عَلَى الَّذِي لِعِلَّةٍ، وَلِأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا كَانَ لَهُ نِسْبَةٌ إِلَى الطَّرَفَيْنِ، فَالطَّرَفُ الْأَعْلَى مُقَدَّمٌ عَلَى الطَّرَفِ الْأَدْنَى"[٤٩]. وهناك من ذكر أنَّ التقديم يدلّ على: "أن عداوة العبد لله هي الأصل، وهي أشد قبحاً، فلذا قدمت، وقبحها في أنهم عبدوا غير خالقهم، وشكروا غير رازقهم، وكذبوا رسل ربهم وآذوهم"[٥٠].

إنَّ في هذا الخطاب القرآني الإقناعي معانٍ دقيقة تضمنها وراء سطوره، فتضمن معنى النصح والإرشاد للذين آمنوا، وأيضاً تضمن معنى التحذير متجسد في قوله تعالى:(لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ...)، وفي الآية المباركة تقرير في قوله تعالى:(وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ).

٥-الإقتضاء:

يُعدُّ الاقتضاء قرينة دالة على معنى لا يظهر على السطح في مقابل الشكل، إنّما يضمن داخل غلافه، ويستعان على إدراكه؛ لذا يُعدُّ من الوسائل المهمة لتحليل الخطاب، وكشف ما وراء النّص من معانٍ ضمنية خفية. من ذلك قولهُ تعالى: "وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا"(٥١). ففي قوله:(وَجاءَ رَبُّكَ) اقتضاء، أي: بمعنى (أمره وقضاؤه)؛ وذلك لأن الدليل يتضاد مع حركة البارئ لأنه من سمات الحادث وقد اقتضى أنَّ الّذي أتى أمره(٥٢). ولما كان لابد من التأويل، خرج على أنَّ هذا من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، ثم حمل هذا المضاف على معانٍ، فهو أما: وَجاءَ أمر ربُّكَ بالمحاسبة والمجازة، أو: وَجاءَ قهر ربُّكَ، أو: وَجاءَ جلائل آيات ربُّكَ؛ (لأن الحديث عن يوم القيامة)، أو: وَجاءَ ظهور ربَّكُ؛ وذلك لأن معرفته يوم القيامة ضرورة كظهوره وتجليه للخلق(٥٣).

ومما تقدم يتضح أنَّ هذا الخطاب القرآني الإقناعي تضمنّ معانٍ ضمنية دلت على التعظيم والترهيب والتهويل، فضلاً عن أنّه يحمل دلالة الترغيب، إذ إنَّ الله تعالى يستقبل الجميع ويُعطي لكلِّ ذي حقٍ حقه ، فالمحسن له جزاء إحسانه والمسيء له جزاء إساءته ، على أنَّ هذا الأسلوب الرصين جاءَ لإثارة الأذهان والأسماع والقلوب معاً ؛ لتنبيه الإنسان وإيقاظه من غفلته.

مِثَالُ ذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: "يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"(٥٤) . ففي قوله تبارك وتعالى (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كنتم)، معنى اقتضاه النص؛ فَإِنَّهُ من غير المعقول :"حَمْلُ الْمَعِيَّةِ عَلَى الْقُرْبِ بِالذَّاتِ فَتَعَيَّنَ صَرْفُهُ عَنْ ذَلِكَ وَحَمْلُهُ إِمَّا عَلَى الْحِفْظِ وَالرِّعَايَةِ أَوْ عَلَى الْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالرُّؤْيَةِ"(٥٥). كَمَا قَالَ تَعَالَى: "وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حبل الوريد"(٥٦). يتضمن هذا الخطاب معنى الإقناع والتأثير فالمؤمن إذا استشعر عظمة الله وقدرته وإحاطته بكل شيء، حاسب نفسه على كل صغيرة وكبيرة، وأبرأ ذمته من حقوق العباد.

وفي الخطاب إشارة إلى عظيم خلق الله ومكانة هذا الخلق؛ لأن مجرد الإحساس بأنَّ الله معنا في كل زمان ومكان يعطي لنا عَظمة وجلالاً من جانب، ومن جانب آخر يخلق فينا اعتماداً على النفس ويمنحنا الشجاعة، ومن جهة أخرى فإنَّ ذلك الإحساس يولّد أو يثير احساساً شديداً بالمسؤولية؛ لأنّ الله _سبحانه وتعالى_حاضر معنا في كل زمان ومكان وناظر ومراقب لإعمالنا، وهذا من الدروس التربوية، وفي الوقت نفسه فإنَّ تواجده معنا يمثل رمزاً لعَظمتهِ وعزتهِ. على أنَّ مسألة وجود الله دائماً معنا هي حقيقة وليست مجازاً، إذ إنَّها حقيقة مقبولة للنفس، ومولدة للخوف والمسؤولية وهذا ما يعززه قول الرسول (ص): "إن من أفضل ايمان المرء أن يعلم أن الله تعالى معه حيث كان"[٥٧]. وهل من رسالة إلى الأرض أكبر وعظاً من هذه؟ وأعظم زجراً منها؟ فهي رسالة من الله تعالى إلى بني البشر مفادها لا تغفلوا! فإنّ الله تعالى عالم بكل ما يعمله خلقه، رقيب عليهم، ليس بغائب عما يفعلون، وفي الوقت نفسه تحمل معنى التحذير عن طريق المعنى: لا تنسى يا بني آدم أنَّ الله معك فتذكر ذلك.

لا يخفى على مطلع في النصوص القرآنية أنَّ فيها آيات معية الهية، وقد تنوعت أساليبها واختلفت دلالاتها وكلماتها فمنها ما تضمن لفظة (مع) وغيرها جاءت بلفظ (علم) ومشتقاته، وأخرى بألفاظ الاحاطة والسمع والبصر، والرؤية، والمعية عامة وخاصة، فمن المعية العامة ما جاءَ بقولهِ تعالى :"وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كنتم".

ومن ذلك قولهُ عز وجل: "وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا"[٥٨]. حيث إنَّ: "حقيقة قدمنا هنا بمعنى عمدنا وقدمنا أبلغ منه لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من السفر ، لأنه [عاملهم] من أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ، ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم. وفي هذا تحذير من الاغترار بالإمهال، وبالمعنى الذي يجمعهما العدل ، لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل ، والقدوم أبلغ لما بينا. وأما هباء منثورا فبيان قد أخرج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه حاسة"[٥٩]. فالنص يُشير إلى وجود

معنى ضمني يتمثل في (الإخلاص) وأهميته في النجاح والفلاح، فلا خلاص يوم الحساب إلا (بالإخلاص)، بل هو المفتاح لقبول أي عمل. ورسالة أخرى واضحة تُشير إلى أنَّ أعمال أهل الضلالة التي عملوها ممزوجة بالرياء والدجل لا أثر لها، ووصفها بـ(منثوراً) بحيث لا يمكن نظمه أبداً .

وأيضاً قوله تعالى: "يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ"[٦٠]. فالآية تحمل معنى ضمني عن طريق الاقتضاء؛ لأن :"تعليق التقوى بذات الرب يقتضي بدلالة الاقتضاء معنى اتقاء مخالفته أو عقابه أو نحو ذلك؛ لأن التقوى لا تتعلق بالذات، بل بشأن لها مناسب للمقام، وأول تقواه هو تنزيهه عن النقائض، وفي مقدمة ذلك تنزيهه عن الشركاء باعتقاد وحدانيته في الإلهية"[٦١]. وبهذا عمل الاقتضاء على إعطاء معنى دقيق للخطاب الإقناعي، وتضمن الخطاب عن طريق دلالة الإيماء والتنبيه على معنى التعليل، وبهذا يكون المعنى اتقوه لأن زلزلة الساعة شيء عظيم، زيادة على أنَّه تضمن معنى النصح والإرشاد للناس جميعاً، فالخطاب يشمل الناس جميعاً لا تفريق من حيث العنصر، واللغة، والزمان، والطائفة، من مؤمن وكافر وذكر وانثى، وحاضر وغائب..الخ.

والّذي يُلفت النّظر في النّص القرآني أنَّه يُمثل دعوة الكافر إلى التقوى بالإيمان، وللمؤمن هي دعوة بالتجنب عن مخالفة أمره ونهيه، وقد كانت عظمته زلزلة الساعة هي المسوغ للأمر، وبالتالي فهي دعوة للجميع إلا أنَّها عن طريق الإنذار!!

الخاتمة: أهم النتائج التي أفضى بها هذا البحث، هي:

١-المعاني الضمنية دليل على اتساع وكثافة المعاني القرآنية، وتعدد دلالاته وكثرتها، فليس الغاية منها الوقوف بالنصوص عند المعنين وحسب، وإنما تأكيد على تعدد المعاني القرآنية وعمقها، فهي تمتاز باللانهائية لامتدادها عبر الأزمنة والعصور، وترك أثرها في الماضي والحاضر والمستقبل.

٢-إنَّ إنعام النظر في كلِّ حرف من حروف القرآن الكريم يدلنا على مقصدية معينة وغاية كبيرة، فكيف بتراكيبه وأساليبه البديعة التي تحمل معاني جليلة ظاهرة ومتضمنة وراء إعجازه وأسلوبه المنماز.

٣-أثبت البحث دور الإحالة في إغناء الخطاب القرآني بكثرة المعاني مع قلة الألفاظ؛ إذ تتسع دائرة الإفادة في المعاني وما يتصل بها من مرامي الكلام وربما تتعدى إلى الأحكام.

٤-إنَّ ظاهر الآيات يدلّ على معانٍ محددة، وإبراز المحذوف وسبب حذفه يعطي معنىً أدق وأوسع، وتأكيداً أعمق في مقصود الآية ومراميها، فكلما تعمقنا في تأمل الآيات، بدت لنا ما فيها من كنوز وأنوار.

٥-إنَّ تقديم بعض العناصر في التراكيب أو تأخيرها يكسب الخطاب دلالات متعددة ينبني عليها المغزى العام والرسالة التي تحمله.

٦- يُعدُّ الوصل والفصل ظاهرة أسلوبية دقيقة في نظم الخطاب القرآني الإقناعي، لِمَا لهُ من أثرٍ بارزٍ في أداء المعنى؛ فهو أداة فنية لتحقيق أهداف المعنى المقصود، وعن طريقه يمكن الوصول إلى بعض المعاني الضمنية خلف الألفاظ .

٧- يحتل الاقتضاء أثراً بارزاً في تجلي جانباً مهماً من جوانب الإعجاز، يتمثل في أثراء دلالات المنطوق الوارد في سياق معين ومقام خاص، ولاسيّما في الخطاب الإقناعي القرآني الّذي يحمل بين طياته مواعظ وعبر لا تحصى؛ لتوجيه الناس وإرشادهم فيما هو فيه صلاح لهم.

الهوامش:

١ -سورة البقرة:آية٢ .

٢ - ظ:مفاتيح الغيب:٢٥٩/٢ .

٣ -البرهان في تفسير القرآن:١٢٤/١ ، ظ:التفسير العياشي:١٠٨/١ .

٤ -تفسير الصافي:٣٨/١ .

٥ –ديوان الإمام علي عليه الصلاة والسلام:١٧٥ .

٦ –ظ: اشارات الاعجاز:١/٤٦ .

٧ –ظ: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:١/٣٧ ، اشارات الاعجاز:١/٤٦ .

٨ –ظ: إشارات الإعجاز:١/٤٧ .

٩ –التحرير والتنوير:١/٢٢٥ .

١٠ – م . ن:١/٢٢٧ .

١١ –آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:٨٥ .

١٢ –نظرية الفعل الكلامي:١٥٢ .

١٣ –اللسانيات الوظيفية:٢٦ .

١٤ –سورة المؤمنون:آية١٢–١٣ .

١٥ –أنوار التنزيل وأسرار التأويل:٤/٨٣ .

١٦ –التحرير والتنوير:١٨/٢٢ .

١٧ –سورة المؤمنون:آية١٥ .

١٨ –سورة البقرة:آية٢٥ .

١٩ –ظ: اشارات الاعجاز:١/١٩٨ .

٢٠ –البرهان في تفسير القرآن:١/١٥٥ .

٢١ –ظ:الكشاف:١/١٠٨ .

٢٢ –ظ: اشارات الاعجاز:١/٢٠١ .

٢٣ –سورة النساء:آية١ .

٢٤ –سورة الزمر: آية ٦.

٢٥ –سورة الأعراف: آية ٢٧ .

٢٦ –سورة الحجرات: آية ١٣.

٢٧ –ظ: الميزان في تفسير القرآن:١٣٩/٤–١٤٠ .

٢٨ –مدارك التنزيل وحقائق التأويل:٣٢٦/١ .

٢٩ –سورة الرعد: آية ٤١ .

٣٠ –ظ: الميزان في تفسير القرآن:١٤١/٤ .

٣١ – م. ن :١٤٢/٤ .

٣٢ –ظ: التحرير والتنوير:٤ /٢١٤–٢١٥.

٣٣ –سورة الزمر:آية٧٣ .

٣٤ – النكت في إعجاز القرآن:٧٦–٧٧، ظ:بيان إعجاز القرآن، ٤٧ .

٣٥ – سورة الحشر: آية١٨ .

٣٦ – البلاغة(المعاني):٤٦٦ .

٣٧ –ظ: الجامع لأحكام القرآن:٤٣/١٨ .

٣٨ –سورة آل عمران:آية١٦–١٧ .

٣٩ –ظ:الكشاف:٣٤٣/١ .

٤٠ –سورة البقرة:آية٢٤٥ .

٤١ –ظ: من بلاغة النظم العربي:١٥٤ .

٤٢ –ظ: تفسير القمي:٣٥١/٢، بحار الأنوار:٢١٥/٢، تفسير العياشي:٢٤٩/١ ، البرهان في تفسير القرآن:٥١٦/١ .

٤٣ –ظ: التحرير والتنوير:٤٨١/٢–٤٨٣ .

٤٤ –روح المعاني:٧٦٨/٢ .

٤٥ –سورة الأنبياء:آية١٠٤ .

٤٦ –سورة الْأَنْبِيَاء: آية١٠٣ .

٤٧ – ظ:التحرير والتنوير:١٥٨/١٧ .

٤٨ –سورة الممتحنة:آية١ .

*ورد في الأصل (الغير) .

٤٩ – مفاتيح الغيب:٥١٦/٢٩ .

٥٠ –اضواء البيان في ايضاح القران بالقران:٨١/٨ .

٥١ –سورة الفجر:آية٢٢ .

٥٢ – ظ:الاتقان في علوم القران:٢٢/٣ ، مفاتيح الغيب:١٥٩/٣١ .

٥٣ – ظ: مفاتيح الغيب:١٥٩/٣١ .

٥٤ –سورة الحديد:آية٤ .

٥٥ –البرهان في علوم القران:٢٠٦/٢ ، ظ:الخطاب القرآني بين إشكالية الفهم ودلالة النص:١٤.

٥٦ –سورة ق : آية١٦ .

٥٧ –الدر المنثور:١٧١/٦ .

٥٨ –سورة الفرقان:آية٢٣ .

٥٩ –النكت في اعجاز القران:٨٦–٨٧ .

٥١– سورة الحج:آية١ .

٦١ – التحرير والتنوير:١٨٦/١٧ .

المصادر والمراجع:

١- الإتقان في علوم القرآن: أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،(د. ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٢- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: بديع الزمان سعيد النورسي (ت١٣٧٩هـ)، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، ط٣، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢.

٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ)،(د. ط)، دار الفكر، بيروت-لبنان، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٤- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: محمود أحمد نحلة، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١١م.

٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي(ت٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت،١٤١٨هـ.

٦- بحار الأنوار الجامع لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام: الشيخ محمد باقر المجلسي، تحقيق وتصحيح: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت-لبنان، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٧- البرهان في تفسير القرآن: العلامة المحدث السيد هاشم البحراني، حققه وعلق عليه: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائين، ط٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت-لبنان، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م .

٨- البرهان في علوم القرآن: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م.

٩- بلاغة (المعاني): مناهج جامعة المدينة العالمية، جامعة المدينة العالمية،(د.ط)،(د.ت).

١٠-بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي الخطابي (ت٣٨٨هـ)،تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام،ط٣، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦م.

١١-التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن محمد عاشور (ت١٣٩٣هـ)، (د. ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٢-تفسير الصافي: ملا محسن فيض كاشانى، (د. ط)، (د.ت).
١٣-التفسير العياشي: للشيخ أبي النضر محمد بن مسعود العَيّاشي(ت٣٢٠هـ)،تح: قسم الدراسات الإسلامية، ط١، مؤسسة البعثة، قم، ١٤٢١ .
١٤-تفسير القمي: لأبي الحسن علي بن ابراهيم القمي، صححه وعلق عليه: السيد طيب الموسوي الجزائري،(د.ط)، مطبعة النجف، منشورات مكتبة المهدي، ١٣٨٧هـ.
١٥-الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي(ت٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة،١٣٨٤ هـ-١٩٦٤م.
١٦-الخطاب القرآني بين إشكالية الفهم ودلالة النص: الدكتور أيوب جرجيس العطية، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٢ .
١٧-الدر المنثور في التفسير بالمأثور: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي(٩١١هـ)،(د. ط)، دار الفكر، بيروت،(د.ت) .
١٨-روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي(ت١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.
١٩-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل(تفسير الزمخشري): أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري(٥٣٨هـ) ، ط٣ ، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان،١٤٠٧هـ.
٢٠-اللسانيات الوظيفية: أحمد المتوكل، ط٢، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠١٠م.
٢١-مدارك التنزيل وحقائق التأويل: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي(ت٧١٠هـ)، حققه وأخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، ط١، دار الكلم الطيب، بيروت، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٢٢-مفاتيح الغيب: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي الملقب بفخر الدين الرازي(ت٦٠٦هـ)، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ١٤٢٠هـ.
٢٣-من بلاغة النظم العربي: د. عبد العزيز عرفة، ط١، القاهرة، ١٩٨٢.

٢٤- الميزان في تفسير القرآن: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، صححه وأشرف على طباعته: فضيلة الشيخ حسين الأعلي، ط١، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت-لبنان، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م .

٢٥- نظرية الفعل الكلامي بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي: هشام عبد الله الخليفة، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، ٢٠٠٧م.

٢٦- النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن: علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي (ت٣٨٤هـ)، تحقيق: محمد خلف الله أحمد والدكتور محمد زغلول سلام، ط٣، دار المعارف بمصر،١٩٧٦م.